

الفرق بين الفرق

تأليف

صدر الإسلام ، الأصولي ، العالم ، الشافعي
قاهر بن ظاهر بن محمد : البغدادي ، الإسفرائيني ، التميمي
المتوفى في عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م

مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، وميدان الأزهر بمصر

محمد محيى الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه

و جميع حق إعادة الطبع محفوظ له

يطلب من ناشره

مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، ميدان الأزهر بمصر

مطبعة الكائن
٦٨ شارع العباسية - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المتقين ، وقائد الغر
المجاهدين ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذي بعثه الله رحمةً وهُدًى وبُشْرَى
للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ثم على علماء أمتنا العلماء ، وعلى كل من
سبَّح طريقه إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن عقيدة الإسلام سهلة سيرة لا تعقيد فيها ، وهي التي توافق
الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها وتتقبلها العقول الصافية من دخول
التقليد والتصببية ، وكلمة الشهادة « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً
رسول الله » هي المعيار الذي جعله الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لبيان
هذه العقيدة ، ومن معناها الإيمان بأن لهذا الكون خالقاً حكماً قديراً مدبراً ، وأنه
لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه ليس كمثل
شيء ، وأنه يصطفى من عباده من يشاء فيرسلهم إلى الناس يبلغونهم ويبشرونهم
ويؤذنونهم ، والإيمان بأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي رسول الله أرسله الله
على حين فتنة من الرسل ، وأنزل عليه كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت ، وأنه
أدبى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، وصبر وصابر حتى صارت كلمة الله هي العليا ،
وكلمة الذين كفروا السفلى .

وأى فطرة سليمة لا تشعر بأن لهذا الكون مدبراً حكماً ما شاء كان
وما لم يشأ لم يكن وكل إنسان متوقف بطبيعته إلى الخضوع لذلك والإذعان به ،
ثم إلى إدراكه في يسر وسهولة إلا أن تنكس فطرته ، أو يران على قلبه ،
أو تجتأه الشياطين ، أو ليس كل أحد يتكفر في شأن من شؤونه ، ثم يدبر له

أسبابه ودواعيه ، ثم يسلك طريقه إليه ، ثم لا يدخر وسعاً في ركوب كل صعب وذلول ليباغ ما يريد وهو يعتقد أنه لم يترك وسيلة إلا دبرها واستخدمها ، ثم إذا الأمر يجرى - رغم أنه - على غير ما يريد ، وعلى خلاف ما يقدر ، وعلى خلاف ما ظن أنه واصل إليه ، وعلى خلاف ما اعتقد أن هذه الوسائل وهذه الطريق موصلة إليه ؟ فإذا هو - بعد أن جرى هذا الشوط الفسيح - يعلم أن ثمة قدرة فوق قدرته ، وأن هلكاً فوق علمه ، وأن تدبيراً فوق تدبيره ، وأن تقديراً فوق تقديره ، وأن هذه القدرة وهذا العلم وهذا التدبير وهذا التقدير هو الذي جرت الأمور على ما أراد ؟

وقد دخل في الإسلام قوم خلصت قلوبهم من أدران التقليد والعصبية ، وصفت نفوسهم لما يدعومهم إليه رسول الإيمان ، واطمأنت خواتمهم إلى أمانته هذا الرسول الكريم وصدقته ؟ فمضوا على ما دعاهم إليه الواحد الأحد والملك المليك منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وكره أحدهم الشرك وما كان يعبأ بأبائهم كما يكره أن يلبس في النار ، ورأوا رسول الله وصحبه فاحبوه فوق ما يحبون آبائهم وأبناءهم ، وفدوه بالأنفس والأموال ، حتى كان أحدهم يستعذب أن يعذب بأشد أنواع العذاب إذا كان في هذا العذاب نجاة للرسول الكريم من أن تشوكة شوكة ، ونفعمهم الله بذلك كله ، وجزاهم عليه خير ما يجزي الصالحين .

ودخل في الإسلام - بجانب هؤلاء - أصناف من الناس ، أولهم جماعة من العرب ساقهم إلى الإسلام - حين جاء فتح الله والنصر - دخول قومهم فيه ، فدخلوه تقليداً وإنسياقاً مع الجمهور ، ولم تكن لهم برؤية صاحب الرسالة ، ولا انشروحت صدورهم بسماع تعاليمه منه ، ولا صفت قلوبهم من آمار جاهليتهم ولا نظفت من أدرانها ، فكان سواء لديهم انتصرت الدعوة الإسلامية أم لم تنتصر ، وثانيهم جماعة من عامة أهل الأديان الأخرى - وعلى الأخص اليهودية -

والجوسية - دخلوا في هذا الدين أيام الفتوح التي أخضعت الدولتين الكبيرتين
اليونانية والفارسية ، فإرا من حكم الإسلام على من يبقى على دينه منهم ، ولم تخالط
بشاشة هذا الدين قلوبهم ، ولا اقتلعت جذور الحقد والضعيفة من قلوبهم ،
ولا استأصلت من أنفسهم أعلام الدين إلى دينهم القديم ، فهم يشقاقونه
وتقطع أنفسهم حسرات عليه ، ويتنون أن يعودوا إليه ، وثالثهم جماعة من دُعاة
أهل الأديان الأخرى وذوى الخبِّ والسكر منهم - وعلى الأخص اليهودية
والجوسية أيضاً - تظاهروا بالدخول في الدين الجديد وهم يضررون في أنفسهم
الكيد والسكر والخديعة ، ويتحسبون الفرصة للانقضاض على هذا الدين الذى
بسطَ سلطانه على رقعة الأرض المعروفة يومذاك ، ويعملون في الخفاء لإيجاد هذه
الفرصة إن لم تواتهم من تلقاء نفسها ، ويهيئون أذهان الطائفتين السابقتين
وقد همَّ وجودهم للقيام معهم فيما يعتزمون القيام به ، وما يزالون يفتلون في الذرورة
والغارب لتواترهم الظروف وتنبها لهم الفرص ، فيلبسون للناس مسوح الصلاح
تارة ، ومسوح الحرص على تعاليم الدين تارة أخرى ، ثم يلبسون لهم مسوح
محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين حين وجدوا من آل بيت
الرسول قوما يذكرون اهتمام حقوقهم وانصراف بعض الناس عنهم ، وينفث
هؤلاء مسوحهم ، فيؤولون في تعاليم الشريعة ، ويدخلون فيها ما ليس منها ،
ويضعون على الرسول أحاديث تؤيد دعاويهم ، ويطلبون الخرار - وهم
عظماة المسلمين الأولى والثانية - بالقيام لنصرة الدين أو لنصرة آل الرسول الذى جاء
بهذا الدين ، هذا فيما نعتقد - هو الأصل الأطيل في الفرقة التى حدثت في الإسلام
وهو عَصَّ طرى لم يكتمل عليه قرن واحد ، وهو السر في محجز المؤمنين الخالصي
الإسلام عن ردِّ كيد هؤلاء المالكين إلى نحورهم ، ذلك بأنهم أثاروا جهود
الناس وكثرتهم ، وبعثوا في نفوسهم الحاس لما يدعونهم إليه ، ووفرة الجماهير
- كما يقولون - محنونة لا عقل لها .

ويروى الترمذى فى سننه حديثاً فى تفرق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، فيقف العلماء الذين صنفوا فى علم الكلام أوفى « الملل والنحل » من هذا الحديث ثلاثة مواقف ، فأما أحدها فالأبتعرضوا له بنفى ولا إثبات ، ومن هؤلاء شيخ أهل السنة والجماعة الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري الذى صنف كتابه « مقالات الإسلاميين ، واختلاف المصلين » وقد أخرجناه إخراجاً دقيقاً فى عام ١٣٦٨ - الموافق عام ١٩٥٠ ، ومنهم الإمام الحقيق أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ، فخر الدين الرازى ، المعروف بابن الخطيب ، الفقيه الشافعى ، المتوفى فى سنة ست وستائة من الهجرة ، وهو صاحب كتاب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » ؛ فقد ألف كل منهما كتاباً من غير أن يعرض لهذا الحديث ، وأما الثانى لجماعة تعرضوا له ولم يصححوه فلم يأخذوا به ، ومن هذا الفريق ابن حزم الفقيه الظاهرى صاحب كتاب « الفصل ، فى الملل والنحل » فقد أعلن عن عدم صحة هذا الحديث ، بل حكم بضعفه ، وأما الثالث فقد تعرض لهذا الحديث وأخذ به وحاول أن يحصر الفرق التى نجت تحت ظلال الإسلام فى ثلاث وسبعين فرقة إحداهن ناجية وهى أهل السنة والجماعة ، ومن هذا الفريق الإمام المتكلم النظار أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » الذى تقدم له بهذا الحديث ، ومنهم الإمام الحجة أبو المظفر الإسفرائينى صاحب كتاب « التبيصر ، فى الدين » الذى يحدو فيه حدوً أبى منصور البغدادى فى تبويبه وتقسيمه ، فلا يكاد يخالفه ، ومنهم أبو المعالى محمد الحسينى العلوى صاحب كتاب « بيان الأديان » الذى أخرجها الدكتور يحيى الخشاب ونشره فى مجلة كلية الآداب (المجلد الأول ، من العدد التاسع عشر) ومنهم القاضى عضد الدين عبد الرحمن ابن أحمد الأيحي المتوفى فى عام ٧٥٦ من الهجرة ؛ فقد صدر عقيدته التى اشتهرت باسم « العقائد العضدية » نسبة إليه بهذا الحديث وشرح فى كتابه هذا مقالات الفرق الناجية من هذه الفرق الثلاث والسبعين .

والحق أن أصول الفرق لا يصل إلى هذا العدد ، بل إنه لا يبلغ نصفه ولا رُبَّه ، ولأن فروع الفرق يختلف العلماء في تفريعها ، وأنت في حيرة حين تأخذ في العدد ، بين أن تعتبر في عدك الفرق أصولها أو فروعها ، وإذا استقر رأيك على اعتبار الفروع فإلى أي حد من التفريع أنت آخذ في اعتباره ، وفي الحق أنه - على فرض صحة الحديث - لا ينحصر الافتراق فيما كان في العصور الأولى ، ومن قبل أن يدون هؤلاء العلماء الأعلام مصنفاتهم ، بل لا يزال الأمر يسير على المنهج الذي سار عليه أول الأمر ، تكون الفرقة واحدة ثم يكون من رجالها أثنان أو أكثر يتدعون في مقالاتهم شيئاً لم يكن عليه أسلافهم فيصبح كل واحد منهم فرقة منفصلة عن قدامها في كل ما كانوا ينتحلون أو في بعضه ، ويحدث في العصر بعد العصر مبتدعة يتدعون ما لم يكن عليه أحد من أهل الفرق الأولى ، من أجل ذلك كل من رأينا أن الأجداد هذا الحديث على ظاهره ومحاولة إيجاد هذا العدد من الفرق من أهل القرون الثلاثة الأولى التي جاء في أعقابها هؤلاء المؤلفون قصوراً وتقصيراً ونقصاً ، فإن حديث الترمذي يتحدث عن افتراق أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، فيجب أن يتحدث في كل عصر عن الفرق التي نجت في هذه الأمة من أول أمرها إلى الوقت الذي يتحدث فيه المتحدث ، ولا عليه إن كان العدد قد بلغ ما جاء في الحديث أو لم يبلغ ، ونحن نجزم أنه إذا كان الحديث صحيحاً ، وأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد قاله ، فلا بد أنه كائن على الوجه الذي أراه صلى الله عليه وسلم ، لأنه صادق في كل ما يقوله : لأنه لا يفتلق عن هوى ، ولا يلقى كلامه إلقاء غير مبالٍ بما يكون من بعد ، والله تعالى شهيد ، ومن تأييده وقوع الأمر في واقع الناس على وفق ما أخبر به . وهذا كتاب « الفرق بين الفرق » أقدمه لقراء العربية ، بعد أن قدمت لهم منذ قريب من خمسة عشر عاماً كتاب أبي الحسن الأشعري « مقالاته »

الإسلاميين واختلاف المصلين» ومما لا ريب فيه أن كتاب «الفرق بين الفرق» من خير ما ألف في هذا الموضوع: حُسن ضبط، واستيعاب بحث، وإتقان تبويب، ودقة عرض، وقد عُنيت بالترجمة للأعلام التي وردت فيه ترجمات مختصرة، ودلت على مزايا هذه الترجمات ليستزيد من أراد الاستزادة، كما دلت على المراجع التي تحدثت عن الفرق التي عرض لها البغدادى لنفس السبب، ثم دقت في تحقيق النص وضبط ألقاظ الكتاب المشبهة وأعلامه، ونفيت عنه كثيراً من الخطأ الذي وقع في طبعتيه السابقتين، أغص منها طبعته الأولى التي نشرت في دار المعارف في عام ١٩١٠ فإنها مليئة بالأخطاء بحيث لا يطمئن قارئ إلى الرجوع إليها، وقد انتفعت كثيراً بالطبعة الثانية التي اضطلع بالإشراف عليها صديقنا المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، رغم أنني خالفته في تحقيق كثير من العبارات.

والله - سبحانه وتعالى - المسئول أن ينفع قراء العربية بهذا العمل، وأن ينفعني بدعوات صالحات من هؤلاء القراء حين يجدون في عملي هذا ما جعل الفائدة منه دانية القُطوف قريبة الجنى.

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

كتبه المعز بالله تعالى

محمد محي الدين عبد الحميد